

تفسير سورة العنكبوت

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اللَّهُ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٢﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣﴾

اما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة « البقرة » .

وقوله : ﴿ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ استفهام إنكار ، ومعناه : أن الله سبحانه وتعالى لا يد أن يتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ، كما جاء في الحديث الصحيح : « أشد الناس بلاء الانبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة ريد في البلاء » (١) وهذه الآية كقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢] ، وقال في البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ (٢) أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبًا وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴾ أى : الذين صدقوا في دعوهم الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه . والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة .

وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : لا يحسن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هنا واطم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ أى : يفوتونا ، ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : بشس ما يظنون .

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٤﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَشُقِرْنَ عَنْهُمْ سِقَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦﴾

يقول تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ أى : في الدار الآخرة ، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملا موفورا ، فإن ذلك كائن لا محالة ؛ لانه سميع الدعاء ، بصير بكل الكائنات ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ

(١) المسند (١٤٨١) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » والترمذی (٢٣٩٨) .

(٢) في المخطوطة : « أن تتركوا » وهو خطأ ، وإنما موضعها الآية (١٦) من سورة التوبة .

السَّيِّحِ الْعُلِيمِ ﴿٤٦﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ [فصلت : ٤٦] أى : من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه ، فإن الله غنى عن أفعال العباد ، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ، ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال الحسن البصرى : إن الرجل ليجاهد ، وما ضرب يوماً من الدهر بسيف .

ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من إحسانه وبره بهم يجازى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء ، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزى على السيئة بمثلاً أو يعفو ويصفح ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ [النساء : ٤٠] ، وقال هاهنا : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَبْتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده ، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ، ولهما عليه غاية الإحسان ، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَلْفَنَ عِنْدَكَ الْكَبِيرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آيٌ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣ ، ٢٤] .

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما ، فى مقابلة إحسانهما المتقدم ، قال : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أى : وإن حرضا عليك أن تتابعهما فى دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك وإياهما ، لا تطعهما فى ذلك ، فإن مرجعكم إلى يوم القيامة ، فأجزيك بإحسانك إليهما ، وصبرك على دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا فى رمة والديك ، وإن كنت أقرب الناس إليهما فى الدنيا ، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب ، أى : حباً دينياً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ . وروى الترمذى عن سعد ، قال : نزلت فى أربع آيات . فذكر قصة ، وقالت أم سعد : اليس قد أمرك الله بالبر ؟ والله لا أطعمُ طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروها فاهاً ، فأنزل الله ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ ﴾ الآية . وهذا الحديث رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وقال الترمذى : حسن صحيح (١) .

(١) المسند (١٥٦٧) ومسلم (١٧٤٨ / ٣٣) والترمذى (٣٠٧٩) وأبو داود (٢٧٤٠) وسعد : هو ابن أبى وقاص . وقوله : « شجروها فاهاً » : الشجر : مفتح الفم ، والمعنى : ادخلوا فى مفتح فمها حوداً حتى يقتنحوه به . انظر : النهاية لابن الأثير ، مادة « شجر » .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون بالإيمان بالاستهم ، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم ، بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة في الدنيا ، اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى بهم ، فارتدوا عن الإسلام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : يعني : فتنته أن يرتد عن دينه إذا أُوذِيَ في الله . وكذا قال غيره من علماء السلف . وهذه الآية كقولها تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْذِرُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ لَّانِ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِن أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي : ولئن جاء نصر قريب من ربك - يا محمد - وفتح ومغاثم ، ليقولن هؤلاء لكم : ﴿ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي : كنا إخوانكم في الدين ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُم لَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِن كُنَّا لَلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَعِذْ بِكُم وَعَلَيْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٤١] ، وقال تعالى : ﴿ فَحَسْبُ اللَّهُ أَن يُأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّن عِنْدِهِ لِيُضَيِّعُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥٢] .

وقال تعالى مخبراً عنهم هاهنا : ﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : أو ليس الله بأعلم بما في قلوبهم ، وما تكنه ضمائرهم ، وإن أظهروا لكم الموافقة ؟

وقوله : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الضَّالِّينَ ﴾ أي : وليختبرن الله الناس بالضرء والسراء ؛ ليميز هؤلاء من هؤلاء ، ومن يطيع الله في السراء والسراء ، وإنما يطيعه في حفظ نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَتَبْلُوَنكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُواْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، وقال تعالى بعد وقعة أحد ، التي كان فيها ما كان من الاختيار والامتحان : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْغَيْبِثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٩] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَيَحْتَمِلُوا حِمْلَ بَنِيهِمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش : أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا ، واتبعوا سبيلنا ﴿ وَلَتَحْمِلُنَّ حِمْلَهُمْ ﴾ أي : وآثامكم - إن كانت لكم آثام في ذلك - علينا وفي رقابنا ، كما يقول القائل : « افعل هذا وخطيتك في رقبتي » . قال الله تكدياً لهم : ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ حِمْلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : فيما قالوه : إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم ، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد ﴿ وَإِن تَدْعُ مِثْلَهُ إِلَىٰ حِمْلِهِ لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨] ، وقال تعالى :

﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يَتَّصِرُونَ لَهُمْ ﴾ [المعارج : ١٠ ، ١١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ : إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة ، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم ، وأوزار آخر بسبب من أضلوا من الناس ، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً ، كما قال تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَمَاءٌ مَا نُزِرُوا ﴾ [النحل : ٢٥] . وفي الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء . » ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيء . (١) وفي الصحيح : « ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سنَّ القتل » (٢) . وقوله : ﴿ وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أى : يكذبون ويختلقون من البهتان . وفي الصحيح : « إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال وقد ظلم هذا ، وأخذ مال هذا ، وأخذ من عرض هذا ، فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا لم يبق له حسنة ، أخذ من سيئاتهم ، فطرح عليه » (٣) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ . فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ ، يخبره عن نوح ، عليه السلام : أنه مكث فى قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق ، وإعراضاً عنه وتكديباً له ، وما آمن معه منهم إلا قليل ؛ ولهذا قال : ﴿ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أى : بعد هذه المدة الطويلة ما لم يجمع فيهم البلاغ والإنذار ، فانت يا محمد - لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ؛ فإن الله يهدى من يشاء ويفضل من يشاء ، ويبدد الأمر وإليه ترجع الأمور ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [بئس : ٩٦ ، ٩٧] ، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ، ويذل عدوك ، ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين . قال ابن عباس : بعث نوح وهو أربعين سنة ، ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعاش بعد الطوفان مئتين عاماً ، حتى كثر النصارى وفشوا . وظاهر السياق من الآية أنه مكث فى قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً . وعن مجاهد قال : قال لى ابن عمر : كم لبث نوح فى قومه ؟ قال : قلت : ألف سنة إلا خمسين عاماً . قال : فإن الناس لم يزالوا فى نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ أى : الذين آمنوا بنوح عليه السلام . وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً فى سورة « هود » ، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى : وجعلنا تلك السفينة باقية ، إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي ، أو نوعها جعله للناس تذكراً لنعمه على الخلق ، كيف نجَّاهم من الطوفان ، كما قال تعالى : ﴿ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ . وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

(٢) تقدم تخريجه عند الآية (٣٠) من المائدة .

(١) تقدم تخريجه عند الآية (٢) من المائدة .

(٣) مسلم (٢٥٨١ / ٩٩) .

يُنْفِقُونَ. إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤١﴾ [يس : ٤١ - ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا خَلَقْنَا الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أَدْنَىٰ وَأَعْيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] ، وقال هاهنا : ﴿ فَأَتَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذْ هَبَسَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۗ إِنَّهُ زَرْحَمُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء : أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له في التقوى ، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، وتوحيده في الشكر ، فإنه المشكور على النعم ، لا يسدى لها غيره ، فقال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى : اخلصوا له العبادة والخوف ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة . ثم أخبرهم أن الأصنام التى يعبدونها والأوثان ، لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم انتم لها أسماء ، سميتوها آلهة ، وإنما هى مخلوقة مثلكم . هكذا روى العوفى عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، والسدى . وروى الوالىس ، عن ابن عباس : وتصنعون إفكا ، أى : تحتونها أصناماً . وبه قال مجاهد - فى رواية - وعكرمة ، والحسن ، وقتادة وغيرهم ، واختاره ابن جرير .

وهى لا تملك لكم رزقا ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ وهذا أبلغ فى الحصر ، كقوله : ﴿ يَاكَ تَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [النافعة : ٥] ، ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ [التمریم : ١١] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَابْتَغُوا ﴾ أى فاطلبوا ﴿ عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ أى : لا عند غيره ، فإن غيره لا يملك شيئاً ، ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ﴾ أى : كلوا من رزقه واعبده وحده ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ، ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله .

وقوله ﴿ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ أى : فبلغكم ما حل بهم من العذاب والتكال فى مخالفة الرسل ، ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ يعنى : إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فاحرصوا لانفسكم أن تكونوا من السعداء .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَعْدِبُ مِن يَسَاءَ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۗ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنشَأَ بِمُعْجِزَاتِنَا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُ وَلِقَابُهُ أَوْتِيكَ يَسُؤُوا مَن رَّحِمِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الخليل، عليه السلام ، انه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه ، بما شاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم ، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين ، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته ؛ فإنه سهل عليه يسير لديه . ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء : السماوات وما فيها من الكواكب النيرة : الثوابت ، والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبرارى وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها في نفسها ، وعلى وجود صانعها ، الذى يقول للشئ : كن ، فيكون ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُبْدِئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ اى : يوم القيامة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَا لَهُمُ الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِلَا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٥ ، ٣٦] . وقوله : ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ اى : هو الحاكم المتصرف ، الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فله الخلق والامر ، مهما فعل فعَدَلٌ ؛ لانه المالك الذى لا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ اى : ترجعون يوم القيامة .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ اى : لا يعجزه احد من أهل سماواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، وكل شئء خائف منه ، فقير إليه ، وهو الغنى عما سواه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَاتِلُوا ﴾ اى : جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿ أُولَئِكَ يَنْوَسُونَ مِنْ رَحْمَتِي ﴾ اى : لا نصيب لهم فيها ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ اى : موجع فى الدنيا والآخرة .

﴿ تَمَّا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِمْ إِذْ أَنْ قَالُوا أَأَقْتُلُوهُ أَوْ حَرَقُوهُ فَأَجَسَهُ اللَّهُ مِنْ تَارٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَلَكِنَّ بَعْضَكُمْ بَعْضُكُمْ يَمْصُورٌ وَمَا وَرَكُمُ النَّارُ وَمَالَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم فى كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ، ودفعهم الحق بالباطل : انهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿ إِذْ أَنْ قَالُوا أَأَقْتُلُوهُ أَوْ حَرَقُوهُ ﴾ وذلك لانهم قام عليهم البرهان ، وتوجهت عليهم الحجة ، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم ﴿ قَالُوا إِنَّا لَهُ بَنَاتٌ مُأْتَلُونَ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات : ٩٧ ، ٩٨] ، وذلك أنهم حشدوا فى جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ، وحرقوا حولها ، ثم أضرموها فيها النار ، فارتفع لها لهب إلى عَنَانِ السَّمَاءِ ، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه فى كفة المنجنيق ، ثم قذفوا به فيها ﴿ فَأَجَسَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ اى : سلَّمه منها ، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يقول لقومه مفرعاً لهم ومويخاً على سوء صنيعهم ، فى عبادتهم الاوثان : إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها فى الدنيا ، صداقة

والفة منكم ، بعضكم لبعض في الحياة الدنيا . وهذا على قراءة من نصب ﴿مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ﴾ على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع فمعناه : إنما اتخاذهم هذا يحصل لكم المودة في الدنيا فقط ، ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ، ينعكس هذا الحال ، فتبقى هذه الصداقة والمودة بَعْضَةً وشنآنًا ، ف ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أى : تتجاهلون ما كان بينكم ، ﴿وَيَلْمُنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ أى : يلعن الاتباع المتبوعين ، والمتبوعون الاتباع ، ﴿كَلِمًا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتٌ أختها﴾ [الاعراف : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿الْأَعْلَاءُ يَوْمَئِذٍ يَمْشُونَ لِبَعْضٍ مِنْهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف : ١٦٧] ، وقال هاهنا : ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْمُنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أى : ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ، وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله . وهذا حال الكافرين ، فاما المؤمنون فيخلاف ذلك .

رَبِيع ﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَمَلْنَا فِي دُرِّيِّهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَمَا آتَيْنَاهُ أَجْرًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم : أنه آمن له لوط ، يقال : إنه ابن أخى إبراهيم ، يعنى : ولم يؤمن به من قومه مواه ، وسارة امرأة الخليل . لكن يقال : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين الحديث الوارد فى الصحيح (١) : أن إبراهيم حين مرَّ على ذلك الجبار ، فسأل إبراهيم عن سارة : ما هى منه ؟ فقال : أختى ، ثم جاء إليها فقال لها : إنى قد قلت له : « إنك أختى » ، فلا تكذبينى ، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرك وغيرى ، فانت أختى فى الدين . وكان المراد من هذا - والله وأعلم - أنه ليس على وجه الأرض روجان على الإسلام غيرى وغيرك ، فإن لوطاً ، عليه السلام ، آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام . وقوله : ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ : يحتمل عود الضمير فى قوله : ﴿ وَقَالَ ﴾ على لوط ؛ لأنه أقرب المذكورين ، ويحتمل عوده إلى إبراهيم ، قال ابن عباس ، والضحاك : هو المكنى عنه بقوله : ﴿ فَمَنْ لَهُ لُوطٌ ﴾ أى : من قومه .

ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ، ابتغاء إظهار الدين والتمسك من ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ فى أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم ، لا يبقى فى الأرض إلا شرار أهلها ، فتلفظهم أرضهم ، تقتلهم نفس الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير فتبيت معهم إذا باتوا ، وتقبل معهم إذا قالوا ، وتاكل منهم من تخلف » . قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيخرج أناس من أمتى من قبل المشرق ، يقرؤون القرآن لا يجاورون تراقيهم ، كلما خرج منهم قرن قطع ، كلما خرج منهم قرن قطع ، حتى عدّها زيادة على عشرين مرة » كلما خرج منهم قرن قطع ، حتى يخرج الدجال فى بقيتهم » (٢) .

وقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ قَلَّمَا عَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ

(١) مسلم (٢٢٧١ / ١٥٤) .

(٢) المسند (٦٨٧١ ، ٦٩٥٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » . وانظر تفصيل ذلك هناك .

إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلاَ جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ [مريم : ٤٩] آى : إنه لما فارق قومه أقرَّ الله عينه بوجود ولد صالح نبي وولد له ولد صالح فى حياة جده . وكذلك قال الله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الايـاء : ٧٢] آى : زيادة ، كما قال : ﴿ فَهَشْرُنَا لَهُا إِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ آى : ويولد لهذا الولد ولد فى حياتكما ، تقر به أعينكما . وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن ، وثبتت به السنة النبوية ، قال الله : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ آمَنَّاكَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] ، وفى الصحيحين : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » (١) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُرَيْشِهِ الْبُوءَةَ وَالْكِتَابَ ﴾ : هذه خَلْعَةٌ سنية عظيمة ، مع اتخاذ الله إياه خليلاً ، وجعله للناس إماماً ، أن جعل فى ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام ، إلا وهو من سلالة ، فجميع أنبياء بنى إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم ، فقام فى ملتهم مبعثاً بالنبي العربي القرشى الهاشمى ، خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة ، الذى اصطفاه الله من صميم العرب العرباء ، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم ، عليهم السلام : ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

وقوله : ﴿ وَأَنبَأَهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ آى : جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له فى الدنيا الرزق الواسع الهينى والنزول الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والشاة الجميل ، والذكر الحسن ، فكل أحد يحبه ويتولاه ، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم : ٣٧] ، آى : قام بجميع ما أمر به ، وكمل طاعة ربه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنبَأَهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَّمِمَّنْ مَّكَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِأَنعَمَ إِلَهًا وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَأَنبَأَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢٢]

﴿ وَلَوْ كُنَّا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفٰرِحِينَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعٰلَمِينَ ﴾
 ﴿ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط ، عليه السلام ، أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم ، وما كانوا يفعلونه من قبيح الاعمال ، فى إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بنى آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ويكذبون رسوله ويخالفون ويفتخرون السبيل ، آى : يقفون فى طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ﴿ وَأَتَّوْنَا فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ آى : يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال فى مجالسهم التى يجتمعون فيها ، لا يتكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك ، فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضاً فى الملا ، قاله مجاهد . ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتباحثون ؛

قاله عائشة ، والقاسم . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، ويناقرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك . وروى الإمام أحمد عن أم هانئ قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ ، قال : « يحذفون أهل الطريق ، ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه » . ورواه الترمذى ، ثم قال : هذا حديث حسن .

وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّنا بَعْدَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمَفْسِدِينَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا بِهِمْ وَصَافٍ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿

لما استنصر لوط ، عليه السلام ، الله عليهم ، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم ، عليه السلام ، في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبئ للضيف ، فلما رأى أنه لا همة لهم إلى الطعام تكبرهم وأوجس منهم خيفة ، فشرعوا يؤانسونه ويشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة - وكانت حاضرة - فتعجبت من ذلك ، كما تقدم بيانه في سورة « هود » و « الحجر » . فلما جاءت إبراهيم بالبشرى ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط ، أخذ يدافع عنهم يُنظرون ، لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا : ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ قال : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى : من الهالكين ؛ لأنها كانت تماثلهم على كفرهم وبغيهم وديبرهم . ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان ، فلما رآهم كذلك ﴿ سِيقًا بِهِمْ وَصَافٍ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أى : اغتم بأمرهم ، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه ، وإن لم يصفهم خشى عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عتات السماء ، ثم قلبها عليهم . وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً ﴾ أى : واضحة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، كما قال : ﴿ وَإِنكُمْ لَتَمْرُؤُنَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْلَمُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] .

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ تَقَوُّرٍ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْسُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب ، عليه السلام ، أنه أنذر قومه أهل مدين ، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة ، فقال : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ

وَأَرْجُوا يَوْمَ الْآخِرِ ﴿٣٨﴾ معناه : واخشوا اليوم الآخر ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [المتحة : ٦] . ثم نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد ، وهو السعى فيها والبس على أهلها ، وذلك أنهم كانوا ينقصون الكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله ، فأهلكهم الله برجفة عظيمة رزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها ، وعذاب يوم الظلة الذي أرقق الأرواح من مستقرها ، إنه كان عذاب يوم عظيم . وقوله : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَالِينَ ﴾ قال قتادة : ميتين . وقال غيره : قد ألقى بعضهم على بعض .

﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْأَلِهِمْ وَرَزَقَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْيُنَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٩﴾ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَارُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ثَمُودُ بِالْبَيِّنَاتِ فَاستَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِرِينَ ﴿٤٠﴾ فَكَلَّمْنَا بَدْيَهُ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسول كيف أبادهم وتنوع في عذابهم ، وأخذهم بالانتقام منهم ؛ فعاد قوم هود ، وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قرية من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح ، وكانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى . وكانت العرب تعرف مسكنهما جيداً ، وتمر عليها كثيراً . وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثمينة . وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القطبان الكافران بالله ورسوله ، ﴿ فَكَلَّمْنَا بَدْيَهُ ﴾ أي : كانت عقوبته بما يناسب ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ ، وهم عاد ، وذلك أنهم قالوا : من أشد منا قوة ؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد ، عاتية شديدة الهبوب جدا ، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم ، وتقتلمهم من الأرض تترفع الرجل منهم إلى عتات السماء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشده فيبقى بداً بلا رأس ، كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ وهم ثمود ، قامت عليهم الحججة وظهرت لهم الدلالة ، من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة ، مثل ما سألوأ سواء بسواء ، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم ، وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه ، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صيحة أخذت الأصوات منهم والحركات . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا ، وعصى الرب الأعلى ، ومشى في الأرض مرحباً ، وفرح ومرح وتاه بنفسه ، واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال في مشيته ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجملجمل فيها إلى يوم القيامة ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ، وهم فرعون ووزيره هامان ، وجنوده من آخرهم ، أغرقوا في صيحة واحدة ، فلم ينبج منهم مخبر ، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ ﴾ أي : فيما فعل بهم ، ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي : إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم . وهذا الذي ذكرناه ظاهر سياق الآية ، وهو من باب اللف والنشر ، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة ، ثم قال : ﴿ فَكَلَّمْنَا بَدْيَهُ ﴾ الآية ، أي : من هؤلاء المذكورين .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ

الْبَيْتِ لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ، يرجون نصرهم ورددتهم ، وتمسكون بهم في الشدائد ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من ألفتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجدى عنه شيئاً ، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء ، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، لقوتها وثباتها . ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به : إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ، ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ أى : وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه . روى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص ، قال : عَقَلْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ألف مثل (١) . وهذه متعبة عظيمة لعمرو بن العاص - رضى الله عنه - حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤٤﴾ أَنْتَلِمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة : أنه خلق السموات والارض بالحق ، معنى : لا على وجه العبث واللعب ﴿ فَيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [طه : ١٥] ، ﴿ لِيُجْزَى الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا وَيُجْزَى الَّذِينَ آمَنُوا بِالْحَقِّ ﴾ [النجم : ٣١] . وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية .

ثم قال تعالى أمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن ، وهو قراءته وإبلاغه للناس : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ . معنى : أن الصلاة تشتمل على شيئين : على ترك الفواحش والمنكرات ، أى : إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق ؟ فقال : « إنه سينهاه ما يقول » (٢) . وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى ، وهو المطلوب الأكبر ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أى : أعظم من الأول ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ أى : يعلم جميع أفعالكم وأعمالكم .

وقال أبو العالية في قوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ قال : إن الصلاة فيها ثلاث خلال ، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة : الإخلاص ، والحشية ، وذكر الله . فالإخلاص يأمر بالمعروف ، والحشية تنهى عن المنكر ، وذكر القرآن يأمر وينهى . وقال ابن عَوْن

(١) المسند (٤ / ٢٠٣) وقال الهيثمي في الزوائد (٨ / ٢٦٧) : « إسناده حسن » .

(٢) المسند (٢ / ٤٤٧) وقال الهيثمي في الزوائد (٢ / ٢٦١) : « رجاله رجال الصحيح » .

الانصارى : إذا كنت في صلاة فانت في معروف ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر ، والذي أتت فيه من ذكر الله أكبر . وقال حماد بن أبي سليمان : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ . يعني : ما دمت فيها . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، يقول : ولذكر الله لعباده أكبر ، إذا ذكروه من ذكرهم إياه . وكذا روى غير واحد عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، وغيره . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : لها وجهان ، قال : ذكر الله عندما حرمه ، قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه . وقال ابن جرير عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لى ابن عباس : هل تدرى ما قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ؟ قال : قلت : نعم . قال : فما هو ؟ قلت : للتسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة ، وقراءة القرآن ، ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولاً عجباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه ، أكبر من ذكركم إياه . وقد روى هنا من غير وجه عن ابن عباس . وروى أيضا عن ابن مسعود ، وأبي الدرداء ، وسلمان المفسري ، وغيرهم . واختاره ابن جرير .

﴿ وَلَا تَجِدُوا أُمَّهَلَ الْمُكْتَبِ إِلَّا بِأَلْفِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهْنَا وَإِلَهُكُمْ وَنُحَدِّثُكُمْ لَمْ مُسْلِمُونَ ﴾

الجزء

٢١

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بأية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف . وقال آخرون : بل هي باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين ، فيجادل بالتي هي أحسن ، ليكون أجمع فيه ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ حُزِلَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَكَ لَهُ بِتَدَكْرٍ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٤٤] . وهذا القول اختاره ابن جرير ، وحكاه عن ابن زيد . وقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أي : جادوا عن وجه الحق ، وعموا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا ، فحبتذ يستل من الجدل إلى الجلال ، ويقاثلون بما يردعهم ويعتصمهم ، قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُوزِنَ النَّاسَ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] . قال مجاهد : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ ، يعني : أهل الحرب ، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية .

وقوله : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ ﴾ يعني : إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا تقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً ، ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلاً ، ولكن نؤمن به إيمانا مجعلا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا ، لا مبدلاً ولا مؤولاً . وروى البخارى عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » : وهذا الحديث تفرد به البخارى (١) .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا

يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُرُ بِمِيسِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمَطْلُوبُ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَشِرُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْبَيِّنَاتِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾

قال ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكتاب على من قبلك - يا محمد - من الرسل ، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب . وهذا الذي قاله حسن ومناسبة وارتباط جيد .

وقوله : ﴿ فَأَلْزَمْنَا الْكُتُبَ الْكُتُبَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي : الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء ، كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، وأشباههما . وقوله : ﴿ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ يعني : العرب من قريش وغيرهم ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ أي : ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغشى ضوء الشمس بالوصائل ، وهيهات . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُرُ بِمِيسِكَ ﴾ أي : قد لبثت في قومك - يا محمد - ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب . وهكذا صفة في الكتب المتقدمة ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْرَاهًا مَكْرَاهًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ الآية [الاعراب : ١٥٧] .

وقوله : ﴿ إِذَا لَارْتَابَ الْمَطْلُوبُ ﴾ أي : لو كنت تحسنا لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول : إنما تعلم هذا من كتب قبله ماثورة عن الأنبياء ، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتُمِبَا فِيهَا تَمَلَّى عَلَيْهِ بَكْرَةٌ وَأَمِيلًا ﴾ [الفرقان : ٥] ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْزَلْنَاهُ الَّذِي يَنْقُلُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦] ، وقال هاهنا : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أي : القرآن آيات بيّنة واضحة في الدلالة على الحق ، أمراً ونهياً وخبراً ، يحفظه العلماء ، يسهه الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ : ﴿ ما من نبي إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً ﴾ (١) . وفي حديث عياض بن حمار ، في صحيح مسلم : ﴿ يقول الله تعالى : إني مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان ﴾ . أي : لو غسل الماء للمحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل ، كما جاء في الحديث الآخر : ﴿ لو كان القرآن في إهاب ، ما أحرقت النار ، لأنه محفوظ في الصدور ، ميسر على الالبسة ، مهيم على القلوب ، معجز لفظاً ومعنى ، ولهذا جاء في الكتب المتقدمة ، في صفة هذه الأمة : ﴿ أناجيلهم في صدورهم ﴾ .

واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ : بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطه بيمينك ، آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب . ونقله عن قتادة ، وابن جرير . وحكى الأول عن الحسن البصري فقط . قلت : وهو الذي رواه العوفي عن عبد الله بن عباس ، وقاله الضحاك ، وهو الأظهر ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَا يَجْعَلُ بَابَنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ أى : ما يكذب بها ويخس حقها ويردها إلا الظالمون ، أى : المعتدون الكابرون ، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَسَبُوا أَنَّهُمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا آتَيْنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ أى : ما يكذب بها ويخس حقها ويردها إلا الظالمون ، أى : المعتدون الكابرون ، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَسَبُوا أَنَّهُمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى تعنتهم وطلبهم آيات - يعنون - ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله كما جاء صالح بناته ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد : ﴿ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : إنما أمر ذلك إلى الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لاجابكم إلى سؤالكم ؛ لأن ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم إنما قصدكم التعتن والامتحان ، فلا يجيبكم إلى ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا نُنزِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا نُورًا مَبْصُورًا فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء : ٥٩] . وقوله : ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أى : إنما بعثت نذيراً لكم بين النذارة فعلى أن ابلاغكم رسالة الله و ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ عِقَابُ غَدَاقٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] .

ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم ، وسخافة عقلهم ، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم به - وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، الذى هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه - فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُقْرَأُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : أو لم يكفهم آية أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم ، الذى فيه خير ما قبلهم ، ونبأ ما بعثهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أمى لا تقرا ولا تكتب ، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب ، فجتهم بأخبار ما فى الصحف الأولى ، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه ، وبالحق الواضح البين الجلى ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَقُولُوا هَذَا الْقُرْآنُ غَدَاقٌ وَإِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ تُرْسِلُ ﴾ [الإسراء : ١٩٧] وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا آتَيْنَا إِلَّا بِالْبَاطِلِ وَأَنَا مِنَ الْمُبْسُوتِينَ ﴾ (١) من ربه أو لم يكفهم آية ما فى الصحف الأولى ﴿ [طه : ١٣٣] . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » . أخرجه من حديث الليث (٢) . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إن فى هذا القرآن ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أى : بياناً للحق ، وإداحة للباطل ﴿ وَذِكْرَى ﴾ بما فيه حلول النعمات ونزول العقاب بالمتكبرين والمعاصين ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

(١) فى المخطوطة : « وقالوا لولا أنزل عليه آية » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

(٢) مضى تخريجه فى الصفحة السابقة .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا ﴾ أي : هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه ، بأنه أرسلني ، فلو كنت كاذبا عليه لانضم مني ، كما قال تعالى : ﴿ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . لَمَّا مِنْكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ - ٤٧] ، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ، ولهذا أبدني بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات . ﴿ يَطْمَعُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : لا تخفى عليه خافية ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي : يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا ، ويقابلهم على ما صنعوا ، من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل ، كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، وآمنوا بالطواغيت والوثان بلا دليل ، سيجازيهم على ذلك ، إنه حكيم عليم .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾
يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَخْسِفُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ
وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله ان يقع بهم ، ويأس الله ان يحل عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِالْعَذَابِ أَيْمًا ﴾ . [الانفال : ٣٢] ، وقال هاهنا : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي : لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريبا سريعا كما استعجلوه . ثم قال ﴿ وَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي : فجأة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أي : يستعجلون بالعذاب ، وهو واقع بهم لا محالة . قال شعبة ، عن سماك ، عن عكرمة في قوله : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ قال : البحر .

ثم قال عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَخْسِفُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الاعراف : ٤١] ، وقال تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ لَوْ يَطْمَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارُ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ [الانبياء : ٣٩] ، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم ، وهذا ابلغ في العذاب الحسى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد وتقرع وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوى على النفوس ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مِنْ سَقَرٍ . إِنْ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٨ ، ٤٩] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٣ - ١٦] .

﴿ يَسْجُدُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا يُجْرُونَ مِنْ حَيْثُ أَتَانَهُمُ الَّذِينَ خَلَدُوا فِيهَا يَنْعَمُ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَن مِّن دَائِرَةٍ لَّا نَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرّون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ لِإِبَائِي فَاصْبِرُوا ﴾ . ولهذا ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليأمنوا ، على دينهم هناك ، فوجدوا هناك خير المنزلين ، أصحمة النجاشي ملك الحبشة ، رحمه الله ، وآواههم وأيدهم بنصره ، وجعلهم سيوما بيلاده . ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الياقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة .

ثم قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أى : أينما كنتم يدرككم الموت ، فكفونوا فى طاعة الله وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بد منه ، ولا معيد عنه ، ثم إلى الله المرجع ، فمن كان مطيعا له جازاه أفضل الجزاء ، ووفاه أتم الثواب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى : لنسكننهم منازل عالية فى الجنة تجري من تحتها الأنهار ، على اختلاف أصنافها ، من ماء وخمر ، وعسل ولبن ، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكين فيها أبدا لا يفتون عنها حولا ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ : نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين ، ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى : على دينهم ، وهاجروا إلى الله ، ونايذوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ، ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده وتصديق مواعده ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فى أحوالهم كلها ، فى دينهم ودنياهم .

ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا ، بل كانت أرواق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد فى سائر الاقطار والأصهار ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ ذَايَبَةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أى : لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئاً لعد ، ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَيَأْتِيكُمْ ﴾ أى : الله يفيض لها رزقها على ضعفها ، ويسره عليها ، فيبث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه ، حتى الذر فى قرار الأرض ، والطير فى الهواء والحيتان فى الماء ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ ذَايَبَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود : ٦] . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنْ يُزَكَّوْنَ ۗ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۗ ﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾

يقول تعالى مقررا أنه لا إله إلا هو ؛ لأن المشركين - الذين يعبدون معه غيره - معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر ، وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده ، ومقدر آجالهم ، واختلافها واختلاف أرواقهم فقاوت بينهم ، فمنهم الغنى والفقير ، وهو العليم بما يصلح كلا منهم ، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد فى ملكه

فليكن الواحد في عبادته ، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون في تلييتهم : « لييك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك » .

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهيَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾
فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الدَّرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهُو ولعب : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهيَ الْحَيَوانُ ﴾ أى : الحياة الدائمة الحق الذى لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الأبد ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : لآثروا ما يبقى على ما يفنى . ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدهونه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا منهم دائماً ﴿ فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الدَّرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء : ٦٧] . وقال هاهنا : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الدَّرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ . وقد ذكر محمد بن إسحاق ، عن عكرمة بن أبى جهل : أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فأراً منها ، فلما ركب فى البحر سيدهب إلى الحبيشة ، اضطربت بهم السفينة ، فقال أهلها : يا قوم ، اخلصوا الربكم الدعاء ، فإنه لا يُنجى ههنا إلا هو . فقال عكرمة : والله إن كان لا ينجى فى البحر غيره ، فإنه لا ينجى غيره فى البر أيضاً ، اللهم لك على عهد لئن خرجت لأذهبن فلاضعن يدي فى يد محمد فلاجدنه رؤوفاً رحيماً ، وكان كذلك .

وقوله : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا ﴾ : هذه اللام لام العاقبة ؛ لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقيضه إياهم لذلك فهى لام التعليل . وقد قدمنا تقرير ذلك فى قوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخِزْيَانٌ ﴾ [القصص : ٨] .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَسَخَّطْنَا النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمُونَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يقول تعالى ممثلاً على قریش فيما أحلهم من حرمه ، الذى جملة للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن دخله كان آمناً ، فهم فى امن عظيم ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً ، كما قال تعالى ﴿ لِإِبِلِ قُرَيْشٍ ﴾ إلى آخر السورة [قریش : ١ - ٤] . وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمُونَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ ﴾ أى : أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه الأصنام والأنداد ، و ﴿ يَدُلُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحْلُوا فَوَقَّهُمْ ذَارَ التَّوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] ، وكفروا بنسب الله وعبدوا ورسوله ، فكان اللاتق بهم إخلاص العبادة لله ، وألا يشركوا به ، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره ، فكذبوه وقتلوه وأخرجوه من بين أظهرهم ؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم ، وقتل

من قتل منهم بيدك ، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ففتح الله على رسوله مكة ، وأرغم أنافهم وأذل رقابهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ أى : لا أحد أشد عقوبة من كذب على الله فقال : إن الله أوحى إليه شيء ولم يوح إليه شيء . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله . وهكذا لا أحد أشد عقوبة من كذب بالحق لما جاءه ، فالأول مفتر ، والثاني مكذب ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ . ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنَّا ﴾ أى : الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ، ﴿ لَتَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أى : لتبصرونهم سبلنا ، أى : طرقنا في الدنيا والآخرة ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : الذين يعملون بما يعلمون ، يهديهم لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبي الخوارى : فحدثت به أبا سليمان الداراني فأعجبه ، وقال : ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر ، فإذا سمعه في الأثر عمل به ، وحمد الله حين وافق ما في قلبه .